الوجدان

الامتحـــــــان

-١٣-

لأهمية كتاب فائق بطي (الوجدان) الذي بث فيه سيرته الذاتية عبر نصف قرن من تاريخ العراق الحديث، آثرت (المدى) الثقافي أن تنشر بين وقت وآخر حلقات من هذا الكتاب الذي سيصدر عن (المدى) بدمشق قريباً لما يلقيه الكتاب من ضوء على مفصل مهم من نشوء الصحافة العراقية، وتطورها وأثرها في المعترك السياسي، واثر التحول من النظام الملكي إلى الجمهوري وما رافقه من أحداث وانقلابات. والكتاب من زاوية أخرى يكشف أسراراً وحلقات مؤثرة من تاريخ العراق السياسي والثقافي.

(المدى الثقافي)

فائق بطي

منتصف آذار ١٩٧٧

ما احلى بغداد في هذه الايام.. زهور القداح تتراقص على اغصان الشجر واعشاب تصحو من رقادها شامخة تسابق زمنها القصير. الهواء المائل الى برودة منعشة يداعب البراعم والوريقات البكر في الاشجار العملاقة. انه يوم بديع من ايام الربيع الحلوة.
كان في حديقة منزله الجديد في منطقة الجادرية الجميلة القريبة من جامعة بغداد، يداعب هو الآخر الورود ويسقيها الماء، حين جاءه رافد، خجولا، حزينا، يبسط نظره على الزرع، وراح يتمتم بعبارات مخنوقة بألم واضح.
قال رافد:
-طردوني من المدرسة.. وسكت.
وقعت تلك الكلمات المخنوقة والمزوجة بحرقة قلب يرتعش، وقعت عليه كصاعقة لا يكاد يصدق ما سمعه للتو من ولده، او تراه لم يرد ان يصدق. فامتحانات البكالوريا الثانوية على الابواب. كادت الصدمة ان توقعه ارضا، لولا ان رافد احتضنه والدموع تتساقط من عينيه.
قال رافد:
-لم يكن الذنب ذنبي، صدقني يا ابي.
ان رافد لم يكذب يوما في حياته. انه ولد مؤدب وصادق مع نفسه ومع الآخرين، دمث الاخلاق، حلو المعشر، رقيق القلب، محب للناس، رياضي ومن عشاق الموسيقى. يتميز بالذكاء وهو متفوق في دراسته طيلة سنوات دراسته في كلية بغداد قبل ان تقوم سلطات البعث بتعريقها. يحترم الناس، وتخجله نظرات الاخرين. لا يعلو صوته على احد، صديقا كان ام قريباً. احب الناس فيه البساطة والهدوء وخفة دمه.
مع دقات قلب الوالد الحزين وهي تتسارع لمعرفة المزيد من التفاصيل، احتضنه وطبع قبلة الأبوة على خده، وطلب منه ان يسرد له ما حدث بهدوء وبدون انفعال.
قال رافد بعد ان احس بالاطمئنان وشعر بحنان والده الصادق:
-لقد غاب عن بالي ان اخبرك باستحقاق الانذار النهائي للقسط الأخير من اجور الدراسة، فمنعني مدير المدرسة من ركوب باص الكلية. كنت حائرا، وانا لا املك مليما واحدا في جيب سروالي. اسودت الدنيا في عيني ولم اعد افكر بشيء سوى بالعودة الى البيت مشيا من منطقة الصليخ الى الجادرية، وهي مسافة طويلة جدا. أن المسافة التي اعنيها سوف تستغرق مني ثلاث ساعات، كنت متعبا من الدراسة والنشاط الرياضي. انتظرت باص الكلية حينما وصل الى الشارع الرئيس، فقفزت الى داخل الباص عبر النافذة وتطاير الزجاج وكاد ان يمزقني لولا رعاية الرب..
سكت رافد، وبدأ بالبكاء وهو يشكو من صدمة نفسية..وسكت هو بدوره.
لحظات، ثم قال لرافد:
-لا تبك يا ولدي، فانت رجل. سوف ارافقك غدا الى المدرسة.

❖❖❖

في كلية بغداد، شهد الطلاب والمدرسون اغرب قصة لطالب يعتبره المدرسون من التلاميذ المميزين في الدراسة والرياضة، ومدير مدرسة لم تمض على استلامه الادارة الا اشهر قليلة بعد عملية التعريق.
وفي غرفة ذلك المدير الذي يسمى سليمان الجعفري، وبحضور والد احد الطلاب ايضا، لاعب الكرة المعروف، لطفي عبد القادر، جرى حديث صريح حين قال للجعفري:
-اريد عودة ابني الى المدرسة.
انتفض المدير البعثي من مكانه، وكأن عقربا قد لدغته، وصرخ عاليا:
-ماذا تريد؟
كرر عليه القول من جديد ببرود:
-اريد عودة ابني الى الدراسة.
علا صوت الجعفري اكثر وهو يرتجف وقال:
-انك تطلب المستحيل.
نهض المربي الجديد متجها الى باب غرفته، واشار عليه بترك المدرسة ومهددا بالعواقب. نظر الى اللاعب لطفي، فوجده يتوسل اليه ان يمتثل الى طلب المدير. في تلك اللحظة، ادرك بأن المسألة لا تخص رافدا فقط، بل انها ابعد بكثير مما تصوره. ان ولده يدفع ضريبة ما يرتكبه الوالد من "جرائم سياسية" في دولة يحكمها الطارئون على الدولة..
ركب الاثنان السيارة، واثناء تجاوزهما الباب الرئيسي للكلية، شاهد على جانبي الطريق الطويل المؤدي الى الشارع الآخر، رتلا من عربات "المارسيديس" السوداء الخاصة برجالات دولة صدام حسين، وقد ترجل منها عدد كبير من اصحاب الياقات البيض. التفت الى ولده رافد، وقال له وقلبه يعتصر من الألم:
-لا تحزن يا ابني، فالمدرسة اصبحت من ممتلكات ابن (السيد النائب).
من كلية بغداد، انتقل رافد الى مدرسة الثانوية النظامية، وحصل في نهاية العام الدراسي على اعلى الدرجات، فحق له ان يقرر مستقبله بنفسه. هل يبقى في بغداد ويدخل احدى جامعاتها، ام يغادر مع آخرين الى خارج العراق؟

❖❖❖

في صيف ذلك العام، غادر رافد الى لندن للدراسة، وسافر هو ايضا الى موسكو للدراسة.
قبل ان يتجه الى موسكو، قال لرفاقه في الجريدة مودعا: الى اين نسير؟ لم يتلق الجواب من احد. فركب الطائرة وتمتم مع نفسه: انا اعرف الى اين نسير.
في موسكو، استقبله جلال الماشطة، و في القطار المتجه الى قلب المدينة، سأله: الى اين نسير؟ نظر في عيني جلال لحظات، فوجده لا يزال بانتظار الجواب، فلم يجبه.
وتكرر السؤال من كل الذين قابلهم لاحقا في العاصمة الثلجية.
كانوا اربعة يتسامرون في شقته التي خصصتها له الاكاديمية. وضع الكؤوس امامهم: غائب طعمة فرمان، عزالدين رسول وبرهان الخطيب. انها الليلة الاولى في موسكو، واللقاء الاول مع اولئك الاصدقاء الذين يحبهم ويعشق طيبة قلوبهم. انه قادم من بغداد، وطيبتهم تتطلب منه ان يكون عند حسن ظنهم ان ارادوا منه ان يتحدث بصراحة، وهو الآن خارج جريدة الحزب.
غائب طعمة فرمان، يحاول ان يلتقط منه بعض الخيوط، ليحبك منها ما ينقصه في انجاز روايته الجديدة بعد ان اصدر "الآم السيد معروف". يبحث عن ابطال حقيقيين، رغم انه خارج الوطن.
وبرهان الخطيب، الروائي الشاب، يريد هو الآخر ان يكون شاهدا على ما يجري وهو يحبك حوارات اولئك الذين تركهم في بغداد يواصلون عملهم السري من "شقة في شارع ابي نواس"ويتراكضون في حارات ودرابين البتاوين والكرادة بعيدا عن عيون الرقباء، ويصلون إليه سالمين، فيحكون خبايا القصة الضائعة.
اما عزالدين رسول، الاديب الكردي القادم من مدينة السليمانية، فأنه يستعد للعودة الى العراق بعد ان اكمل الدراسة، ويريد هو ايضا ان يطمئن على المستقبل في كردستان الحكم الذاتي.
كانوا على حق.. ان الوضع في العراق غير آمن.
في غمرة لحظات التأملات والامنيات، اطل جلال الماشطة وهو محمل بمتطلبات السهرة وقد قاربت الزجاجات الاولى على ان تختفي من على المائدة.
دارت الكؤوس بعدة اتجاهات، وفجأة وقف جلال في وسط الغرفة، وقد انتابته الرجفة،واشار بعصبية و بحركة من اصبعه في مواجهة الصديق القادم من بغداد، وقال:
-انكم تتحملون مسؤولية ما يحدث وما سيلحق غدا بالشعب.. والله لن يغفر لكم التاريخ اخطاءكم هذه المرة.
قاطعه غائب، وهو منتعش بعد كأسه الخامس، مدحرجا ضحكته المطبوعة بطيبته وشخصيته المحبوبة لكل الناس، محاولا ان يكون جادا في الكلام، فوقف هو الآخر، وقال:
-على كيفك يا جلال.. ترى الجماعة يتواجدون في بغداد وليس في موسكو او براغ.
احس برعشة تخترق كل جسمه وهو يستمع ويسترق النظر بعيدا، محاولا ان يرى من خلال زجاج النوافذ التي يكسوها الثلج، معالم موسكو وهي نائمة، حين ارعبه صوت جلال من جديد، متوعدا ومحملا المسؤولية التاريخية على قيادة الحزب.
وفجأة، ينهض جلال ويتجه الى باب الشقة دون ان يودع الجالسين. نظر الباقون الى بعضهم، وانهوا الجلسة، كما تنتهي مثل هذه الجلسات دون نتيجة.

❖❖❖

قبل ان يغادر موسكو بعد انقضاء الشهر بيوم واحد، سمع طرقا خفيفا على باب الشقة في صباح ذلك اليوم. اطل غائب على غير عادته، وبدا مرتبكا حزينا وفي يده يحمل جريدة. دلف مسرعا الى داخل الشقة. نظر اليه مستغربا، واستفسر منه عما يحمله، فيبادره غائب بالقول:
-هل اتصل بك احد من بغداد؟
ازدادت حيرته من سؤال "ابو سمير"، فرد عليه :
-خير ان شاء الله يا ابا سمير، ما القصة؟
سكت غائب برهة، ثم سلمه الجريدة التي كانت في يده بهدوء ، وقال:
-البقية في حياتك.
قرأ في جريدة الثورة خبر نعي شقيقه كمال بالسكتة القلبية. وهكذا يسقط فارس آخر من الفرسان الاربعة. لقد سبقه بديع بثماني سنوات وبالذبحة الصدرية ايضا.
في بغداد بعد عودته من موسكو، نظر اليه الفارس الثالث،شقيقه سامي، وهما في مجلس التعزية المقام في دار اخيهما الراحل، كمال، وقال:
-ترى من سيكون ضحية الذبحات الصدرية في الايام المقبلة؟
ابتسما رغم المصاب الأليم، وذهب كل منهما الى داره.

احلمْ.. فعل أمر.. بعراقٍ معافى!

علي عبد العال

لا بأس؛ سأستدين هذه "النصيحة . الجملة . العنوان". هكذا ربما يكون عليه العُنوان"أحلمْ" ولو مجرد حلم بعراق "مُعافى". عند ذلك يطيب الحلم حتى ولو كان كاذبا.
الشخص الذي ينصحني تلك النصيحة الغريبة التي تبدأ بفعل أمر شاعري "احلم" هو إنسان رقيق وسعيد؛ إنه يوحي لي بذلك على أية حال. الأشخاص السعداء والمترفون ينصحون الناس "الغلابة" المبتلين بالهموم المستفحلة نصائح جميلة. بل هي في الحقيقة نصائح خرافية لا تمت للواقع المُعاش بصلة. الواقع الذي يدرك فيه صاحبي أن العراق يرقد على سرير المرض دون رغبة منه بالاعتراف بأسباب المرض الحقيقية: جنون الطغاة الذين جاءوا بالغزاة. إنه أشبه بإهداء للكلام، أي كلام! أنا الصائم عن الكلام منذ سقوط طاغية العراق "المحبوب عربيا" حتى ظهوره في قفص الاتهام مجردا من الأبهة، ومن تلك النظرات التي كانت تكفي وحدها لقتل الخصوم ومحق أي أثر لهم دون أن يرف لها جفن. كم يحب بعض الناس المرفهين من الأغنياء بعض الجوانب من حياة الطغاة؟ لكن لصوت العدالة وقع آخر في نفوس المقهورين الأبرياء. إنها الموسيقى التي ينتظر سماع لحنها وكلماتها الأشخاص المعذبون في الأرض. أولئك الناس الذين لا يحبون الزعماء الدجالين كثيرا. الذين يحبون القصائد أكثر، والحرية أكثر مما يتغنون ببطش الرؤساء الأغبياء المتشددين، والأباطرة المجوفين، ورجال الدين المهرجين الكذابين من أصحاب اللحى الشيطانية الرثة.
دعني أحلم بـ "عراقٍ مُعافى"؛ تلك ليست نصيحة سيئة بأيِ حال من الأحوال. خصوصا عندما يهديها لك شخص وهو يتمشى على ساحل البحر الأبيض المتوسط، ساحله الجميل وعاصمته النظيفة، مرتديا المايوه الأبيض النظيف، ويفوح منه العطر الطيب المستورد من أرقى المحلات في باريس.
"أحلم بعراق معافى"..
بعد ربع قرن من التشرد عن العراق! أحلمْ بوطنك الأم بعد أن صار عمرك خمسين، ستين، سبعين، ثمانين، تسعين، قرناً، فقط أحلم بوطنك "مُعافى". يا له من كلام جميل. والناصح يعرف جيدا أنك تشرب كل مساء كئيب وغريب يمر عليك خارج الزمن وخارج الحدود دنا من الخمر كي تنسى آلامك الممضة، وتبلع في حالات الإفلاس وفراغ الجيوب درزنا من الحبوب المنومة كي تنام، وربما يبلع البعض حبوبا مضاعفة للقضاء على أمراض الكآبة والقلق النفسي في صقيع المنافي الاسكندنافية الرائعة. لكن، ومع ذلك، يجب احترام هذه النصيحة الفذة إذا توفرت لديك الرغبة بجني بعض الفائدة من هذه الحياة العجيبة. لكن أسأل نفسي، أتساءل وسط هذا الزمان المجنون والوقت الغريب الذي أهدرنا فيه أعمارنا من دون حساب بانتظار تحقق الأحلام الصغيرة، لنا كبشر في هذه الدنيا من المفترض أن ننعم ببيت وبوطن وبعمل لائق، والأحلام العظيمة في "وطن حر وشعب سعيد". أين هذا الزمان وأين المكان اللذان سيشهدان تحقيق مثل هذه الأحلام التي تكاد تقترب من الخرافات؟ هل سيكون مجرد قبر صغير لي ولأحلامي الصغيرة والكبيرة؟ حتى مجرد الحلم بقبر في الوطن يعد ضرباً من ضروب الترف بالنسبة للمواطن العراقي المنفي منذ أكثر من عشرين عاما. مواطن لم يجمع المال ولم يخن أحلامه الصغيرة، الرقيقة، التي طالما اقتات على أمدها حتى الرمق الأخير.
ماذا أقول لأخوتي من المثقفين العرب الذين يعملون في صحف مأجورة يمدها دكتاتور يجثم على روحي منذ أكثر من عقدين؟ ويواصلون الدفاع عن هذا الدكتاتور الصغير، الأرعن، الواضح حتى لمجرد طفل عراقي يبيع عمره في الشارع الوسخ والمهدم كشهادة واضحة على انحطاط هذا النظام ومقدار همجيته! ماذا يمكن القول لبشر تعرف أنهم يفهمون، وأنهم مرهفون، حين يغدقون عليك النصائح المغشوشة، ويتقبلونك كونك مريضا نفسيا؟ ويدعونك بكل تهذيب إلى أن تذهب للالتحاق بالأخوة المجاهدين في "الفلوجة" فيما إذا تيسر لك وكنت "سنيا" تحت رايات القائد الفذ، الجندي المسرح من الجيش الأردني لأسباب صحية، وطالب المتوسطة الفاشل دراسيا، والعلامة الإسلامي المجاهد أبي مصعب الزرقاوي. أو تحت ألوية القائد الشاب مقتدى الصدر كجندي في جيش المهدي المنتظر فيما إذا قيض لك وكنت "شيعيا". ويمتعضون منك حين تعلن ببساطة "إنني لم أعد صالحا" للحروب أو القتال أو الدجل. يمتعضون وهم الجالسون في بيوتهم الآمنة، وينعمون بالدف بين أفخاذ نسائهم القبيحات المدللات.
أولئك الأصدقاء المثقفون، الأدباء المرهفون، الطيبون عندما يحتسون الكؤوس بالمجان، اللماحون حين تغيب هالة المال والجاه والسلطان هنا لتشرق هناك في مكان آخر. مثقفون جدا يشحذ مخيلاتهم رؤساء تحرير صحف أقل منهم علما وأقل منهم مجدا وأقل منهم ثقافة. رؤساء تحرير صحف تأسست بأموال شعب العراق لتدق الطبول وتزمر لحروب الدكتاتور، وليتم السوق التهريجي لأبناء وفتيان العراق إلى مقاصل الحروب القومية . الوهمية الكاذبة أمثال الأستاذين المصري مصطفى بكري والفلسطيني عبد الباري عطوان ومن جر جرهما من الإعلاميين الغوغائيين على غرار الدكتور فيصل القاسم. شعراء وأدباء، مثقفون كان عليهم الاعتماد بنشر هاجس الإحساس بالحرية وبكرامة الإنسان في بلدانهم. وهاهم يتخاذلون تحت بريق الشهرة وطعم التحويلات والمكافآت المالية المشجعة. والعجيب أنهم أنفسهم لا يذهبون للفلوجة أو إلى أي مدينة في العراق للاشتراك في مقاومة الأمريكان تحت ذريعة "إنهم مثقفون أحرار" وأصحاب قلم!
لكن التاريخ واضح كوضوح دروسه العميقة والبسيطة التي غالبا ما ينساها التلاميذ الكبار في مدرسة الحياة الصعبة. حيث صرح الدكتاتورية يتهاوى أمام أنظارهم في أكثر من بلد وعلى أكثر من رقعة سياسية من أنظمة الحكم الشمولية. لكنه "دكتاتورهم" الخاص، وأبن جلدتهم وولي نعمتهم. مَن كان يعرفهم قبل ذلك؟ قبل أن يتدخل صانع المعجزات ويلقي بهم وسط العدسات والأضواء والشهرة والمال؟ وبعد أن رأوا المقابر الجماعية، ودب في أرواحهم دبيب الخوف من العواقب وهم المرهفون الحساسون من مساندة الباطل ضد الحق، يبدؤون بالتنظير في الطريق إلى التبرير. ويفضلون إسداء النصائح الهادئة، البعيدة عن الإعلام وغير المؤذية لدخلهم الشهري. على غرار "نم جيدا" "لا تشرب كثيرا" "حافظ على صحتك". وفي سرائرهم الدفينة يتمنون لك الموت السريع لأنك كنت دائماً أنظف سريرة منهم.
ما أعظم دروس التاريخ؛ إنها تكشف لك جميع المزيفين من الأبطال والأدباء والزعماء، ربما حتى بهذا الوقت القياسي بحساب التاريخ، وقت ارتقاء دكتاتور صعلوك على تلال من الجماجم والدماء على مقدرات بلد عظيم كالعراق، ومن ثم وقوعه في فخ القدر ومزابل الزمان. عندما سقط هذا الوهم الكاذب ورأوه كما رآه الناس بدأ البحث عن منابع أخرى ووسائل جديدة لملء الفراغ الروحي الذي يتمتع به أولئك المثقفون المرهفون. هكذا يجزلون النصائح المفيدة للمعذبين . بالفتحة الحقيقيين دون الشعور بأي حياء.

تنويه واعتذار

في عدد المدى (٢١١) الصادر في ٢٥ أيلول وفي الصفحة الثقافية مقال بعنوان (أعطني.. أعطني ماء القلب) موقعاً باسم د. فاضل السوداني وهو خطأ غير مقصود فالمقال بقلم الأستاذ ناجح المعموري...
والمدى إذ تنوه عن هذا الخطأ غير المقصود فإنها تعتذر من القراء وكاتب المقال الأستاذ ناجح المعموري.

أنا غريب.. هكذا قلت...

ماجد موجد

قلت: مرحى أيتها الضوئية الناشفة
ظننتك امرأة تكتب دهشةً
لوجه الغريب
وتكشف شفتيها
عن ذاكرة ضاع وجهها
ظننتك امرأة تقول: أين هو...
فقلت: أنا.. غريب
وقلت: هذه الأسماء التي حرزتها
وهذا بعض من الحزن
.....
لو لم أكن غريباً
لو لم تكني تبحثين عن أهلك
لقلت: لم تأت بعد
المرأة التي وعدني بها الرجل الإلهي
قال: يا أخي
ستسميك الناس ظلاً غريباً
لكنك ستهدأ..
لحظة تطالع آخر أنفاسك
امرأة تبحث عن ثلاثة بيوت من طين
وعن ساقية نصف مستديرة
امرأة مشبعة بالحلم والحزن
حيث الرجل الذي تريده
هو أنت..
تريد أن ترفع غربتك
عن نافذة البكاء المصفرة
وتعصر ليمونة حياتها في فمك اليابس
فقلت له: امرأة غريبة
فقال: ومشبعة بالحلم والحلم..
وحالما يتفصد جسدك
وروحك أيضاً تتموج
قل بقوة: أنا لك أيتها الضوئية الناشفة
فأنت غريب حتى يكون لك ذلك...
....

قلت: أنا لك أيتها الضوئية الناشفة
فهل أخطأت؟
ظننتك تبحثين
عن ثلاثة بيوت من طين
وساقية نصف مستديرة
أنا غريبَ.. هكذا قلت...
ولم يبق من الأسماء ما أحمل
ولا من المدن ما وقفت فيها وبكيت
أأنت من تعصر ليمونة حياتها
في فمي اليابس
هل كان فمي يابساً..؟
أسفت لك
عما ظننت
فلا تشيعي خجلي البارد إلى جمرة الناس
أردت أن أردد لك بعضاً من الحزن
وبعضاً من الكلام الجديد
لكنني أسفت
هكذا أفكر الآن
بما قاله الرجل الإلهي
وأغني على جدار الندم..